الصلة بين علم البلاغة والشريعة مع عرض نماذج من فصاحة النبي ﷺ في أحاديثه

Connection between the Eloquence and Shariah

Al-Bara Safwan Abdel-Ghany
Assistant teacher at Al-Azhar University
And a coordinated member of the Education Development Office at Al-Azhar University
Email: Baraasafwan@azhar.edu.eg ORCID: https://orcid.org/0000-0002-3048-6449

Dr. Hayat Ullah
Lecturer Arabic Department – NUML Islamabad
Email: hayatullah@numl.edu.pk ORCID: https://orcid.org/0000-0003-1137-0042

Abstract

The Arabs were known for their eloquence from ancient times, and they were competing in the field of saying, especially (poetry). The poet had a great place in them; because he used to defend them, broadcast their exploits, take pride in their virtues, and speak to their enemies, and the whole tribe used to celebrate his genius. The poet, at that time, had been considered a ministry of information for his tribe. When the divine revelations revealed upon Prophet Muhammad PBUH in the shape of Holy Quran and Prophet Sayings, they were considered as miracles in the field of elegance of Arabic language. Quranic and prophetic rhetoric had become the standard of eloquence. This research aims to examine aspects of the eloquence of the Prophet PBUH within the framework of selected examples from the His PBUH sayings. This study highlights the topic in a descriptive and analytical way.

***Keywords**: Arabs, ancient times, poetry, Holy Quran, Prophet sayings, prophetic rhetoric.*

الملخص:[1]

عُرف العرب بالفصاحة والبلاغة من قديم الزمان، وكانوا يتبارون في ميدان القول خاصة (الشعر)؛ فللشاعر مكانة عظيمة فيهم؛ لأنه يدافع عنهم، ويُذيع مآثرهم، ويتفاخر بمناقبهم، ويهجو أعداءهم، وبلغ التقدير لنبوغ شاعر أن تقيم قبيلته الأفراح احتفاء واحتفالا بنبوغه؛ إذ إن الشاعر آنذاك يعد بمثابة وزارة إعلام بالنسبة لقبيلته.

ولأن الوحي السماوي اختص كل أمة بمعجزة من جنس ما برعت فيه هذه الأمة، فقد اختص نبينا مُحَمَّدا –ﷺ– بمعجزة "القرآن الخالد"، كما اختصه الله بجوامع الكلم، فقال –ﷺ– معددا ما اختصه الله به "أُوتيت جوامع الكلم ...".

وأضحت البلاغة القرآنية والنبوية معيار البلاغة والفصاحة، ومن ثم فإن هذا البحث يهدف إلى الوقوف على جوانب من "فصاحة النبي –ﷺ– في أحاديثه" وذلك في إطار نماذج مختارة من أحاديث النبي –ﷺ– وفق ما تقتضيه مساحة العرض.

وسأتخذ من المنهج الوصفي التحليلي سبيلا لتحقيق أهداف البحث؛ ببيان الصلة بين علوم البلاغة والشريعة من خلال التطبيق على نماذج من فصاحة النبي -ﷺ- في أحاديثه؛ حيث إن فصاحته وبلاغته شاملة جامعة، تجلي هذه النماذج جوانب من فصاحة النبي -صلى الله عليه وسلم- في أحاديثه من خلال نماذج مختارة وفق ما تقتضيه مساحة العرض. وما أجمل أن نركز في هذا البحث على استقراء جوانب من مقومات الفصاحة ووسائلها وما يستتبعها من آثار طيبة بناءة قصد إليها النبي -ﷺ-؛ لعلنا نقتبس من نورها، ونفعلها في حياتنا، وذلك من خلال مبحثين يشكلان جوانب البحث.

المبحث الأول: الصلة الوثقى بين علم البلاغة والشريعة

لقد شكل التنوع العرقي والأجناسي واللغوي العامل الأساس في تعددية المجتمعات ونشوئها، وظل الرابط بين عرق أو جنس أو قومية أو تجمع هو الهوية. والهوية تمثلها أضلاع ثلاثة رئيسة لبقاء أي أمة من الأمم،[2] هذه الأضلاع هي: **الدين**: الذي يحدد للأمة فلسفتها في الحياة وغايتها في الوجود، **واللغة**: التي تمثل ذاكرة الأمة، وتختزن التراث والمفاهيم والقيم، كما تمثل أداة التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، **والتاريخ**: الذي يمثل وعي الأمة وشعورها، والثلاثة تجتمع لدى العرب في لغتهم؛ فالعربية لغة دين والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة خير شاهد، كما أن العربية لغة تاريخ؛ فلغة الحضارة العربية الإسلامية والعلوم والمعارف والوثائق شاهدة لذلك ومتناثرة في مكتبات كثيرة حول العالم.

والشواهد التاريخية تسجل اندثار لغات ونشوء غيرها، وتطور لغات أخرى تطورا جذريا عن أصلها؛ إذ لا يكاد يُفهم نص فهما تاما في لغة ما مضت عليه أربعة قرون مهما كان لهذه اللغة من جوانب البلاغة، لذا؛ فإن العربية تميزت على سائر اللغات بأنها لغة الكتاب الخالد "القرآن الكريم" الذي تعهد الله -تعالى- بحفظه فقال سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}،[3] فالقرآن الكريم -الذي مضى على نزوله ما يزيد عن أربعة عشر قرنا وأربعة عقود- لا يزال يقرأه المسلمون حول العالم بلغته الذي نزل بها تماما على الوجه سمعه النبي -ﷺ- عن جبريل -عليه السلام- عن رب العزة -جلَّ في علاه-، وإذا كان القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع فإن السنة النبوية المباركة -الأحاديث التي صحت عن النبي صلى الله

عليه وسلم- هي المصدر الثاني للتشريع؛ فحاجة كل مسلم إليهما ماسة، وحاجة المختصين إلى الفهم الدقيق لهما أشد.

ولا يمكن فهم القرآن والسنة الفهم الأمثل إلا بفهم لغة العرب وضروب كلامهم وجوانب بلاغتهم، وغريب ألفاظهم؛ لذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه"،[4] ونقل السيوطي[5] اشتراط العلماء في مفسر القرآن الكريم أن يكون جامعا لخمسة عشر علما، منها: علوم سبعة هي علوم العربية: اللغة، النحو، التصريف، الاشتقاق، المعاني، البيان، والبديع؛ فمن هذه العلوم السبعة ثلاثة علوم هي علوم البلاغة: المعاني، البيان، والبديع، وتأتي أهمية علم المعاني من كونه يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، كما تتضح أهمية علم البيان في معرفة خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، أما علم البديع فبه تُعرف وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي من أعظم أركان المفسر.

والإمام الشافعي يحث كل مسلم على تعلم العربية قدر جهده، ويؤكد على أن معرفة العربية أساس في تدبر الوحي (القرآن الكريم)، ومعرفة دقائقه وأسراره، وكذا السنة المباركة، بالإضافة إلى فهم الشريعة واستنباط أحكامها، يقول الإمام: "فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ... وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسانَ مَنْ خَتَم به نُبوته، وأنْزَلَ به آخر كتبه: كان خيرا له...وإنما بدأت بما وصفتُ، من أن القُرآن نزل بلسان العرب دون غيره: لأنه لا يعلم مِن إيضاح جُمَل عِلْم الكتاب أحد، جهِل سَعَة لسان العرب، وكثرةَ وجوهه، وجِماعَ معانيه، وتفرقَها. ومن علِمه انتفَتْ عنه الشُّبَه التي دخلَتْ على من جهِل لسانَها".[6]

وابن خلدون يصنف العلوم صنفين: علوم حكمية (فلسفية)، وعلوم نقلية (وضعية)، ثم يؤكد على أن العلوم النقلية نشأت في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأجل الوقوف على إعجاز الوحي (القرآن والسنة)، وفهم مستتبعاتهما من التشريعات والأحكام، ومن هذه العلوم النقلية -التي لا بد من الوقوف عليها؛ لفهم القرآن والسنة- علوم اللغة، ومنها علوم البلاغة، يقول ابن خلدون:

"وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي: الشرعيات من الكتاب والسنة، التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي نهيئها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي، الذي هو لسان الملكة وبه نزل القرآن.وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة؛ لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه، وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص، أو بالإجماع، أو بالإلحاق، فلا بد من النظر في الكتاب، ببيان ألفاظه أولا، **وهذا هو: علم التفسير**، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي -ﷺ-، الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته، **وهذا هو: علم القراءات**، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم وعدالتهم، ليقع الوثوق بأخبارهم، بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك، **وهذه هي: علوم الحديث**، ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني، يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط، **وهذا هو: أصول الفقه**، وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله -تعالى- في أفعال المكلفين، **وهذا هو: الفقه**، ثم إن التكاليف منها: بدني، ومنها: قلبي، وهو المختص بالإيمان، وما يجب أن يعتقد، وما لا يعتقد، **وهذه هي: العقائد** الإيمانية في الذات، والصفات، وأمور الحشر، والنعيم، والعذاب، والقدر، والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية **هو: علم الكلام**، ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه **العلوم اللسانية**؛ لأنه متوقف عليها، وهي أصناف، فمنها: **علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وعلم الأدب**، حسبما نتكلم عليها كلها.[7]

ثم عقد ابن خلدون فصلا خاصا في علوم اللسان العربي، وبيَّن أهميتها في أخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وضروريتها لدى أهل الشريعة ومن هذه العلوم علم البيان -علوم البلاغة حسب المصطلح الشائع آنذاك- يقول: " في علوم اللسان العربي، أركانه أربعة وهي: **اللغة والنحو والبيان والأدب**، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها في الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغاتهم؛ فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة".[8]

ثم يدقق ابن خلدون في تجلية العلاقة بين علم البيان -يقصد علوم البلاغة حسب المصطلح الشائع آنذاك- من جهة والشريعة من جهة أخرى ومدى الرابطة بينهما؛ فيبيّن أن الثمرة المرجوة من علم البيان هي الوقوف على فهم الإعجاز القرآني، يقول:

"واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها. وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه. وإنما يدرك بعضَ الشيء منه مَنْ كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي وحصول ملكته؛ فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه؛ فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما في ذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه. وأحوج ما يكون إلى هذا الفن المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه".[9]

وللشريعة الإسلامية مقاصد سامية وغايات نبيلة والأساس المكين في بيان هذه المقاصد: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لذا؛ تتجسد -هنا- أهمية العلاقة بين البلاغة والشريعة في تحديد هذه المقاصد وفهمها الدقيق وذلك بفهم المفردات ومعانيها، والتراكيب ومراميها، ودلالة التراكيب: وضوحا وخفاء، ووجوه تحسن الكلام، ومواطن الإعجاز فيه.

ولأجل هذه العلاقة الدقيقة بين علم البلاغة والشريعة -في فهم مقاصدها- يقول الإمام الشاطبي: إن "القرآن نزل بلسان العرب على الجملة؛ فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة؛ لأن الله -تعالى- يقول: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}،[10] وقال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[11]... إلى غير ذلك مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب ... فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة"،[12] ولهذا سرد الإمام الشاطبي علوما عديدة اعتنت بها العرب، ومن أشد هذه العلوم براعة وألصقها بالإعجاز القرآني وفهم مقاصد الشريعة علم البلاغة وما يتصل به من وجوه الفصاحة، يقول الإمام الشاطبي: "واعلم أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن شيمٍ، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبينت منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه ... فمن علومها: التفننُ في علم فنون البلاغة، والخوضُ في وجوه الفصاحة، والتصرفُ في أساليب الكلام، وهو أعظم منتحلاتهم؛ فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم، قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}.[13][14]

وفي ذلك يسوق الإمام الشاطبي نماذج لتوضيح العلاقة الدقيقة بين البلاغة والشريعة، ومن هذه النماذج:

1- في أهمية باب الخبر وضروبه وما يتصل به من علم المعاني يضرب مثالا في القيمة البلاغة التي تحدد الدلالة الدقيقة للخبر ومقتضاه، يقول: إن "كل خبر يقتضي في هذه الجهة أمورا خادمة لذلك الإخبار بحسب الخبر والمخْبِر والمخْبَر عنه والمخْبَر به، ونفس الإخبار في الحال، والمساق، ونوع الأسلوب من: الإيضاح والإخفاء، والإيجاز والإطناب، ... وذلك أنك تقول في ابتداء الإخبار: قام زيد، إن لم تكن ثم عناية بالمخْبَر عنه، بل بالخبر، فإن كانت العناية بالمخْبَر عنه قلت: زيد قام، وفي جواب السؤال -أو ما هو مُنَزَّلٌ تلك المنزلة-: إن زيدا قام، وفي جواب المنكر لقيامه: والله إن زيدا قام، وفي إخبار من يتوقع قيامه أو الإخبار بقيامه: قد قام زيد، أو زيد قد قام، وفي التنكيت على من ينكر: إنما قام زيد. ثم يتنوع أيضا بحسب تعظيمه أو تحقيره - أعني المخْبَر عنه -، وبحسب الكناية عنه والتصريح به، وبحسب ما يقصد في مساق الأخبار، وما يعطيه مقتضى الحال، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها، وجميع ذلك دائر حول الإخبار بالقيام عن زيد"[15].

2- في أهمية باب الكناية وعظمة التعبير بها دون التصريح يذكر الإمام الشاطبي نماذج من الكنايات القرآنية التي يتطلبها السياق؛ نظرا لأنها من "الأمور التي يستحيا من التصريح بها؛ كما كنى عن الجماع باللباس والمباشرة، وعن قضاء الحاجة بالمجيء من الغائط، وكما قال في نحوه: {كَانَا يَأْكُلاَنِ ٱلطَّعَامَ}[16] فاستقر ذلك أدبا لنا استنبطناه من هذه المواضع، وإنما دلالتها على هذه المعاني بحكم التبع[17] لا بالأصل".[18]

لكل ما سبق تتضح الأهمية الكبرى، والصلة الوثقى بين علوم العربية عامة والبلاغة خاصة من جهة، والشريعة الغراء من جهة أخرى؛ الأمر الذي يجعل هذه العلاقة أساسا في فهم مصدري التشريع: القرآن الكريم، والسنة النبوية.

المبحث الثاني :نماذج من فصاحة النبي -ﷺ- في أحاديثه

النبي -ﷺ- قد أوتي جوامع الكلم؛ فصاحة، وبراعة، وقوة إقناع، وتفننا في أساليب القول، وتصويرا بيانيا، ومراعاة حال المخاطبين، إلى غير ذلك من مقومات جوامع الكلم التي اختص الله بها نبيه -ﷺ-.

وقد درج كثيرون على أن يتناولوا مسألة الفصاحة بمقدمة يفرقون فيها بين الفصاحة والبلاغة، ثم يقسمون الفصاحة إلى: فصاحة الكلمة، فصاحة الكلام، وفصاحة المتكلم؛ ولأن هذا التقسيم إنما نسير على دربه في معرفة مبلغ الفصاحة في حق البشر العاديين -الذين أوتوا من البلاغة والفصاحة حظا، أو بلغوا فيها مبلغا؛ يمكن قياس درجة فصاحتهم وبلاغتهم أو قصورهم عنها، ونسبة هذا القصور وأسبابه-؛ فإن الفصاحة في حق النبي -ﷺ- هي صنو للبلاغة، وكلتاهما بلغ فيها النبي -ﷺ- الدرجة العليا -بعد القرآن الكريم- ولا عجب فقد أوتي النبي -ﷺ- جوامع الكلم، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه.

لذا فلست في حاجة إلى أن أتناول جوانب من فصاحة النبي -ﷺ- في أحاديثه وفقا لهذا التقسيم للفصاحة والتفريق بينها والبلاغة، وإنما سأتناول دراستي هذه وفقا للمنظور الأعم الأشمل للفصاحة والبلاغة بكل أبوابهما وأحوالهما اللائقين بمقام النبوة وجلالها، إذ تجتمع الفصاحة بأنواعها كاملة تامة -على مستوى المفردة، أو التركيب، أو المتكلم- في حق النبي -ﷺ-[19]؛ ففصاحة النبي -ﷺ- وبلاغته شاملة جامعة: في كلامه، وفي هيئة نطقه بكلامه وفي موضوع كلامه، أو هي كما قال الرافعي: "ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له -صلى الله عليه وسلم- إلا توفيقا ...إلخ"،[20] ومن جوامع كلمه -ﷺ- نركز في هذا البحث على استقراء جوانب من مقومات الفصاحة ووسائلها وما يستتبعها من آثار طيبة بناءة قصد إليها النبي -ﷺ-؛ لعلنا نقتبس من نورها، ونفعلها في حياتنا.

فصاحة النبي -ﷺ- تعجز كلماتي -وكل إنسان- عن وصفها، وتقصر عن جمعها وشمولها، ولما كان المجتهد مأجور لا محالة -إن أصاب؛ فله أجران، وإن أخطأ؛ فله أجر-؛ فإنني سأجتهد في سرد جوانب من فصاحته -ﷺ-، ثم أركز في النماذج المعروضة على الروابط الجامعة لهذه الجوانب من الفصاحة وآثارها المترتبة عليها، وكفى من القلادة ما أحاط بالعنق.

من مقومات فصاحة النبي -ﷺ-: الدّقة في اختيار الألفاظ، والعبارات والتأنق في اختيارها على منازلها، جزالة التركيب، الوضوح والإبانة، مناسبة المفردات للموضوع والموقف، وتناسقها، قصر العبارات مع عظم المعنى، تنوع الأساليب، الانسجام وعدم التكلف، وضوح الصلة بين اللفظ والمعنى، تجسيد المجرّد في صورة المحسوس، الانتقال من الإجمال إلى التفصيل للإثارة والتشويق، الانتقاء والاختيار بالإضافة إلى شرف المعنى وتمكنه لدى السامع، التكرار؛ ليتمكن المراد لدى المخاطب، الإقناع بأيسر السبل، الترغيب في الحوار، الخلو من الاضطراب:

مفردات وتراكيب، عدم الاستيحاش والاستكراه، عدم وجود كلمة غيرها أتم منها، وضوح التفصيل، جدة الوصف، تمكن المعنى في نفس السامع وجذب انتباهه، عدم الضعف بأي وجه من الوجوه، ضرب الأمثال، التصرف في كل طبقات الكلام، والتكلم بألفاظ مقتضبة لم تسمع عن العرب ... إلخ. وفيما يلي عرض لبعض النماذج من فصاحته -ﷺ- في أحاديثه، وذلك من خلال روابط جامعة من مقومات الفصاحة السابقة، وبيان بعض ما يترتب عليها من آثار، وذلك وفق النماذج التالية:

1- منْ فصاحته -ﷺ-: أنه تكلّم بألفاظ اقْتَضَبَها لم تُسْمَع من العرب قبله ولم توجد في مُتقَدّم كلامها.

كقوله-ﷺ-:

- وحَمِيَ الوطيس.
- مات حَتْف أَنْفه.
- ولا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحر مرّتين.

ومثل ذلك كثير مما جرى فيه قوله -ﷺ- في ألفاظ عديدة مجرى الأمثال.

نسلط الضوء على هذا النموذج الأول: وحَمِيَ الوطيس.

قاله النبي -ﷺ- يوم حنين، وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله -ﷺ-، وإذا أردنا الوقوف على بعض جوانب الفصاحة في قول النبي -ﷺ- نحاول أن نأتي بعبارة قريبة مما قاله النبي -ﷺ-، وقد قام بهذا ابن الأثير يقول: فلو قلنا: "استعرت الحرب" لما كان مؤديا من المعنى ما يؤديه "حمي الوطيس"، والفرق بينهما أن الوطيس هو التنور وهو موطن الوقود ومجتمع النار، وذلك يخيل إلى السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها، وهذا لا يوجد في قولنا "استعرت الحرب" أو ما جرى مجراه.

وفي ذلك يقول الرافعي: "والوطيسُ: هو التنور مجتمعُ النار والوقود، فمهما كانت صفة الحرب، فإن هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنما هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلامَ أكلا، وكأنما هي تمثل لك دماء نارية أو نارا دموية!".[21]

2- ومن فصاحة النبي -ﷺ-: إجابته عن السؤال الواحد بأجوبة متعددة مراعاة لحال المخاطب، وهو ضرب عظيم من ضروب البلاغة والفصاحة؛ إذ إن البلاغة في أوجز تعريفاتها: مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

فمثلا: السؤال عن: الأعمال التي تدخل الجنة:

الصحابة –رضوان الله عليهم–لديهم همة عالية، وتفانٍ في الاجتهاد، وشغف في التقرب إلى الله –تعالى– وإتقان ما يقربهم إليه؛ لذا كان الصحابة –رضوان الله عليهم– يسألون رسول الله –ﷺ– عن الأعمال التي تُدخِلهم الجنة، وتُباعِدهم من النار، يتعدد السائلون، والسؤال واحد، ولكن الجواب مختلف، وهذا جانب من فصاحته وجوامع كلمه –ﷺ–؛ لأن النبي –ﷺ– يجيب السائل من الصحابة رضوان الله عليهم– وهو عالم بأحوالهم، والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فحسب هذه الحال يكون المقتضى، وهذا ظاهر بين في هذا النموذج: (يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخِلني الجنة، ويُباعِدني عن النار).

- عن أبي أيوب الأنصاري–رضي الله عنه– أن رجلًا قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخِلني الجنة، ويُباعدني من النار، فقال رسول الله ﷺ: "تعبُد الله لا تُشْرِكُ به شيئًا، وتُقِيمُ الصلاة، وتُؤتِي الزكاة وتَصِلُ الرَّحِم".
- عن معاذ –رضي الله عنه– قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخِلني الجنة، ويُباعِدني عن النار، قال: "لقد سألت عن عظيم، وإنَّه ليسيرٌ على مَنْ يَسَّرَه الله عليه، تعبُد الله لا تُشْرِكُ به شيئًا، وتقيمُ الصلاة، وتُؤتِي الزكاة، وتصُومُ، وتحجُّ البيت".
- عن أبي أمامة الباهلي–رضي الله عنه– قال: أتيتُ رسول الله ﷺ، فقلتُ: مُرْني بعملٍ يُدخِلني الجنة، قال: "عليك بالصيام، فإنه لا عدل له"، ثم أتيتُه الثانية، فقال: "عليك بالصيام".
- روى ابنُ حِبَّان في صحيحه بلفظ قلت: يا رسول الله، دلَّني على عمل أدخل به الجنة، قال: "عليك بالصوم فإنه لا مثل له".

فنلاحظ أن السؤال واحد، وأن الأجوبة متعددة، وبجمع هذه الأجوبة تصير: (عبادة الله –تعالى– وعدم الإشراك به، إقامة الصلاة في جماعة وفي مواقيتها، إيتاء الزكاة، وصلة الرَّحِم).

ومثل ذلك أجوبة النبي –ﷺ– عن سؤال الصحابة –رضوان الله عليهم–:عن أحبِّ الأعمال إلى الله... إلخ.

3– من جوانب فصاحته –ﷺ–:اختيار الألفاظ اللغوية على منازلها؛ فيتجسد الصدق في الكلمة؛ حتى تستحيل الكلمة الصادقة ناطقة؛ وهذا من كثرة كلمه الجوامع[22] –صلى الله عليه وسلم– التي هي حكمة البلاغة. ومن نماذج ذلك مثل قوله –ﷺ–:

"إنما الأعمال بالنيات".

"رفقا بالقوارير".

"الدين النصيحة".

"الحلال بين والحرام بين".

"آفة العلم النسيان".

"الصبر عند الصدمة الأولى".

"الظلم ظلمات يوم القيامة".

"إياكم وخضراء الدِّمَن".

"الصومُ جُنّة".

"المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضُه بعضا".

"أكملُ المؤمنين إيمانا أحسنُهم خلقا".

"أحبُّ الأعمال إلى الله أدومُها وإنْ قل".

"أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك".

"خيرُ الصداق أيسرُه".

"الإسلام يَعلو ولا يُعلى".

4- من جوانب فصاحة النبي -ﷺ- أيضا: بناء الكلام على الإقناع وتأييده بالحجة والبرهان، وذلك بـ:

- قوة البيان، مثل: قوله -ﷺ-: "إن من البيان لسحرا".
- السلوك والقدوة، مثل: قوله -ﷺ-: "إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف".
- بيان العلة، مثل: قوله -ﷺ-: "أفعمياوان أنتما؟!".
- بالتقابل والتشابه والأضداد، مثل: قوله -ﷺ-: "أتحبه لأمك!".
- ضرب الأمثال، مثل: قوله -ﷺ-: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم".
- الدليل والبرهان، مثل: قوله -ﷺ-: "هل لك من إبل؟ لعله نزعه".

5- كذلك من جوانب فصاحته النبي -ﷺ-: جذب الانتباه بصور محسوسة؛ لترسيخ المعاني في نفوس الصحابة، مثل: قوله -ﷺ-:

"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم..."الحديث.

"مثل القائم على حدود الله ..." الحديث.

"إنما مثلي ومثل من كان قبلكم ..." الحديث.

المراجع

1. ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق: أ.د. علي عبد الواحد وافي، طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة 7، 2014م.
2. الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط9، 1393هـ - 1973م.
3. الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، مراجعة: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
4. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، علق عليه: نصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت – لبنان، ط1، 1429هـ - 2008م.
5. الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، شرحه وخرَّج أحاديثه ووضع تراجمه: الشيخ مُحَمَّد عبد الله دراز، خرَّج آياته وفهرس موضوعاته: عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد، طبعة منقحة في مجلد واحد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1425هـ - 2004م.
6. الشافعي، مُحَمَّد بن إدريس، الرسالة، تحقيق: أحمد مُحَمَّد شاكر، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1358هـ- 1940م.
7. مُحَمَّد، ثناء هاشم، الهوية الثقافية والتعليم في المجتمع المصري "رؤية نقدية"، مجلة كلية التربية – جامعة بني سويف، مصر، ج1، عدد يناير 2019م.

الهوامش (***References***)

(1)- ألقي هذا البحث في المؤتمر الدولي الافتراضي وعنوانه: "الرابطة بين اللغة العربية والشريعة الإسلامية"، الذي أقامه معهد اللغة العربية بجامعة راجشاهي ببنغلاديش، والمنعقد في ١٠ أغسطس – آب ٢٠٢٠م.

1. *Online International Conference: "Relation between Arabic Language and Islamic Sharia" Institute of Arabic Language, Raajshahi University- Bangladesh (10th Aug 2020).*

(2)- ينظر: الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم (3/28-33)، مُحَمَّد، ثناء هاشم، الهوية الثقافية والتعليم في المجتمع المصري "رؤية نقدية".

2. *MuṣtAfA Sādiq Al-rāf'ī: Waḥyu Al-qalam (3: 28-33), Thanā' Hāšhim Muḥmmad: Al-hwyaï Al-Thqāfiï Wālt'līm Fī Al-muğtama' Al-mṣrī "Ru'iï Nqdiï" Education Faculty, Bani Swef University – Egypt, 1, Jan 2019.*

(3)- سورة الحجر (9).

3. *Sūraï Al-ḥiğr (9).*

(4)- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن (ص258).

4. *Jalāl Al-dīn Al-sīūṭī: Al-itqān fī Ulūm Al-qr'ān (P: 258).*

(5)- السابق، (ص 771-772).

5. *Ibid. (P: 771-772).*

(6)- الشافعي، مُحَمَّد بن إدريس، الرسالة (48-50).

6. *Muḥmmad Bin Idṛīs Al-šhāf'ī Al-rsālï (P: 48-50).*

(7)- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة (3/931).

7. *Abd Al-ṛḥman Ibn Kẖaldūn, Al-mqdmï (3: 931).*

(8)- السابق (3/1128).

8. *Ibid. (3: 1128).*

(9)- نفسه (1138).

9. *Ibid. (3: 1138).*

(10)- سورة يوسف (2).

10. *Sūraï Yūsuf (2).*

(11)- سورة الشعراء (195).

11. *Sūraï Al- Iš'rā' (195).*

(12)- الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة (ص255).

12. *Abū Isḥāq, Al-šhāṭbī, Al-mwāfqāt Fī Uṣūl Al-šhrī'ï (P: 255).*

(13)- سورة الإسراء (88).

13. *Sūraï al-isrā' (88).*

(14)- نفسه، (ص 259-262).

14. *Ibid. (P: 259-262).*

(15)- السابق، (ص 257).

15. *Ibid. (P: 257).*

(16)- سورة المائدة (75).

16. *Sūraï Al-mā'idï (75).*

(17)- ما يقصده الإمام الشاطبي هنا بـ"التبع" هو الدلالة الثانية للمفردات والتراكيب أو الدلالة المجازية، كما يقصد بـ"الأصل" الدلالة الأولى أو الدلالة الحقيقية للمفردات والتراكيب.

17. *Al-imām Al-šhāṭbī.*

(18) – نفسه، (ص 279).

18. *Ibid. (P: 279).*

(19)- في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، حاول أديب العربية الرافعي أن يتلمس مقومات لسمو بيانه – ﷺ- يقول: "ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة. وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره -ﷺ-". ينظر: الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (279)، وقريب من هذا في وحي القلم (3/14-18).

19. *Muṣṭafā Sādiq Al-rāf'ī: I'ğāz Al-qr'ān Wālbalāġhï Al-nabawyï (P: 279), MuṣtAfa Sādiq Al-rāf'ī: Waḥyu Al-qalam (3: 14-18).*

(20)- الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص 283).

20. *Muṣṭafà Sādiq Al-rāfʿī: Iʿğāz Al-qrʾān Wālbalāġhẗ Al-nabawyẗ (P: 283).*

(21)- المرجع السابق (ص 228).

21. Ibid. (P: 228).

(22)- المرجع السابق (ص 340-341).

22. Ibid. (P: 340-341).